" الإبداع ": [1]

---

[1] قال د. عبده زايد: "الإبداع[*] الأدبي.. كالإبداع في أي فن من الفنون، تقف ورائه موهبة لا بد منها.. لكل مُبدع.."

-كتاب (خصوصية الإبداع في الشعر الإسلامي المعاصر) د. سعد الدبل ص٢٣-

..وفي التفاتة للشيخ "الأديب" علي الطنطاوي -رحمه الله-، تنبيه جميل في مثل هذا البيت -لشاعرنا -.. حين قال: **وقفت وما في الموت شكٌ لواقف**

إن المتنبي لو وقف هنا.. و لم يُكمل.. لما استطاع أحد "غيره" الإكمال - رحمه الله - ثم أتم: بـ" **كأنك في جفن الردى وهو نائم**".

- [*] ..وإذا تكلما (ملياً) عن الإبداع، نقول: من المعلوم أن السجع موطنه "النثر" - وعلى هذا اشتهر - وخذ ممن أُعطي جوامع الكلم صلى الله عليه وسلم إذ قال: (ألا أُخبركم بشراركم؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال: من أكل وحده ومنع رفده، وضرب عبده).

و..مثلاً/ قال أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه - مُعرّفاً التقوى:

(العمل بالتنزيل، والخوف من الجليل.. والاستعداد ليوم الرحيل).

لكن تنظر لعطاء شاعرنا - وهو ممن أوتي ناصية البيان - فتجده ينظم بسجعٍ بديعٍ.. يقلّ مثله:

فنحن في جدل، والروم في وجلٍ والبَرُّ في شُغلٍ، والبحر في خجل

- قال علي السنوسي.. يثني على الملك عبد العزيز:

ها نحن في عصره (الزاهي) على دعة وصفو عيش رغيد.. ما به كدر:

فالدار عامرة.. والسحب ماطرة والأرض زاهرة.. والدين مُنتشرُ-

ومنه - أي السجع - ما يسمى بالترصيع، كقول أبي صخر الهذلي:

مودٌ ذوالبها، بيضٌ ترائبها محضٌ ضرائبها، ..صيغت على الكرمِ

ثم نقول: ما أحلاه إذا كان على البديهة، وبلا تصنّع.

وما الدهر إلا من رُواة قصائدي ..إذا قلت شعراً أصبح الدهر مُنشدا[1]

لا أجد – مع قلّة الاطلاع – كجميل إيجاز الأديب عبد الله خياط[2]:

".. أي شاعر من مطلع التاريخ.. وحتى يأتي أمر الله ويُنفخ في الصور.. إنما يهمّه من كل ما يقول وينشئ من الشعر:[3]

أن يحفظ له الناس قصيدة، أو بضعة أبيات، أو حتى بيتاً واحداً[4]..، ولقد حفظ الناس – كل الناس على مختلف مستوياتهم واختلاف عصورهم – الكثير من روائع المتنبي..

---

[1] وصف عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – جمال البيان بـ"السحر الحلال"..، وأخذ أبو تمام هذه الكلمة فأدخلها .. في وصف شعره –مع عدم إغفال مبالغته في البيت الثاني –:

فأين قصائد لي فيك تأبى وتأنف أن أنالَ وأن أُنالا

هي (السحر الحلال) لمجتنيه ولم أرَ قبلها سحراً حلالا

..ولأبي تمام/ استرسالاً – وهذا من الإبداع أيضاً –: اتفق مرة أن اعترض أحد الأدباء على الاستعارة في قوله:

لا تسقني ماء الملام فإنني صبٌّ قد استعذبتُ ماء بكائي

وأرسل خادمه يقول: إن مولاي يرجوك أن تملأ هذه الكأس من ماء الملام!، فقال حبيب: قل لمولاك يتفضل أولاً بإرسال ريشة من جناح الذل.

[2] من كتابه "جواهر المتنبي" ص٣١٧، باختصار.

[3] قال أبو الحسن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – "قيمة كل امرئ ما يُحسن".

[4] وصدق الله العظيم حين أغوى إبليس أبانا آدم بالشجرة.. في الجنة، بإحدى ميزتين يعمل المرء لنيلهما "شجرة الخلد" أو "ملك لا يبلى" – كما في سورة طه، الآية ١٢٠–

-...

يشهد له.. بذلك: كثرة استعاراتهم واستشهاداتهم، وفي مختلف المواقف والمناسبات بما أبدع".

..فـ دع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الطائر المحكي..[1] والآخر الصدى

...أجمع سواد أهل الأدب أنه لم يبلغ "في الشعر" كشأنه!

– مـا نـال أهـل الجاهليـة كلهـم شعري،.. ولا سمعت بسحري بابلُ–

إذ/ ذاع من شعره "الحكم" التي علقت على الألسن بالوقائع والمناسبات، وإنك لتعجب.. حين تسمع من أحد "النشء" بيته المشهور:

مـا كـل مـا يتمنـاه المـرء يدركـه تجري الريـاح بمـا لا تشتهي السـفن

أو حين تسمع من أحد "العامة":

إذا أنـت أكرمـت الكريـم ملكتـه وإن أنـت أكرمـت اللئيـم تمـردا

...-

قال السيد أبو الحسن:

واعلـم أنّ المجـد شـيء مخلّـدٌ وأن الفتـى والمـال.. غـير مخلّـد

[1] .. ولما لا يكون؟ .. وهو ينظم:

إذا كـان مـا تنويـه فعـلاً مضارعـاً مضـى قبـل أن تُلقـي عليـه الجـوازم

أو..

مـقالكِ وحيانـا بـكِ الله إنّمـا علـى العيـس نـورٌ، والخـدور كمائمـه

قفي.. تغرمِ الأولى.. من اللحظ مُهجتـي بثانيـة.. والمتلـف الشـيء غارمـه..

أو..

وخصـر تثبـت الأبصـار فيـه كـأن عليـه مـن حـدقٍ نطاقـا

أو..

أزورهـم وسـواد الليـل يشـفع لي وأنثـني، .. وبيـاض الصبـح يغـري بـي

أو حين تسمع من أحد "العباقرة":

وإذا كـــانت النفـــوس كبـــاراً تعبـــت في مرادهـــا الأجســـام[1]

أو حين تسمع من "مغترب":

شرّ البـلاد مكـان لا صديـق بهـا وشرُّ ما يكسب الإنسان مـا يصـم[2]

أو حين تسمع من "باسق الذات":

أ عـزّ مكـان في الدنـا سـرجٌ سـابح وخـير جليـس في الزمـان كتـاب

أو حين تسمع لـ "هائم":

وقنعـــت باللقيـــا وأول نظـــرةٍ إن القليـــل مـــن الحبيـــب كثـــير

واسترسالاً/ إن أبا الطيب لم يلتفت إلى "الغزل"[3] وإلا ما ظننت أن "ابن أبي ربيعة"[4] تسمو غزلياته.. أمام هذا الحكيم "القائل" - مُحذِّراً.. من الغرام وسُبله -:

---

[1] وقد روي بـ "الأحلام" .. أي العقول بدلاً من الأجسام.

[2] وبالمناسبة/ لا تخلو معظم قصائده من الحِكم وشكوى الزمان "كما يقول":

ألا ليـت شـعري هـل أقـول قصيـدةً فـلا أشـتكي فيهـا ولا أتعتـب

علّق الأديب علي العيسى على مراد مطلع مثل هذا البيت بـ:

كانت العرب تقول (ليت شعري) أي: تمنوا أن يسعفهم الشعر في التعبير عن اقتضاء الحاجة..إلخ.

[3] انظر ما يأتي ص ٦٩ وما بعدها.

[4] - القائل:

وقديمـــاً كـــان عهـــدي .. وفُتونـــي.. بالنِّســـاءِ -

فمن شاء فلينظر إليّ فمنظري نذير إلى من ظن أن الهوى سهل

وهاهو يجمع المعاني:

نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال

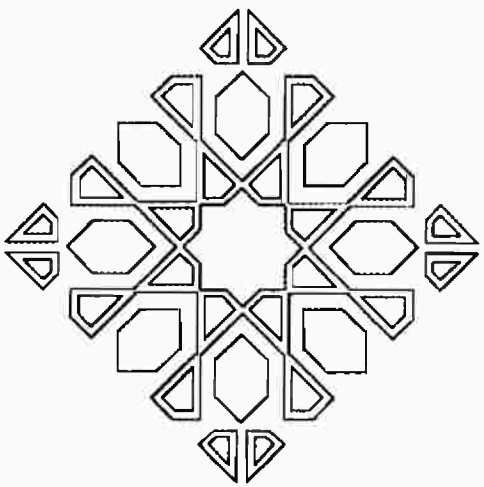

و.. " القصيدة ":

لا يشذّ - أبو الطيب- عن القاعدة العريضة "من الشعراء" بإنشاء القصيدة.. فمن "الأطلال":

لكِ يا منازل في القلوب منازل ... أقفرتِ أنتِ.. وهن منكِ أوآهلُ

و...:

أثلث.. فإنّا أيها الطلل ... نبكي.. وترزم تحتنا الإبلُ

إلى "الصبا.. وربوعه..":

ذكر الصبا ومراتع الآرام ... جلبت حمامي قبل وقت حمامي

أو ".. الحبيبة":

هام الفؤاد بأعرابية سكنت.. ... بيتاً من القلب لم تمتد له طِنبا

ثم.. "النفس": [1]

---

[1] وذلك عن "حاله" وقت النظم.

".. قيل له - لما مدح ابن العميد.. بـ هذا المطلع

بادِ هواك.. صبرت أم لم تصبرا ... وبُكاك.. إن لم يجرِ دمعك.. أو جرى

... كم غرّ صبرك.. وابتسامك صاحباً ... لما رآه، وفي الحشا.. ما لا يُرى ! -

ما أسرع ما تغيرت؟، فقال: هذه حالٌ..، وتلكم حال !! "

وقياساً على هذه "الحال".. تجده - مثلاً - يقول،

لا تلقى دهرك إلا غير مكترث ... ...إلخ

ثم ينظم - في وضع.. آخر -:

واهم يخترم الجسيم نحافة ... ...إلخ

أســري في ظــلام الليــل وحــدي كــأني منــه في قمــر منــير

فـ .. متن "القصيدة" - الموضوع - ثم "الختم"..، وهذا في المُجمل

- عدا المراثي أو الهجاء.. أو بعض قصائد المعارك مع سيف الدولة.[1] -

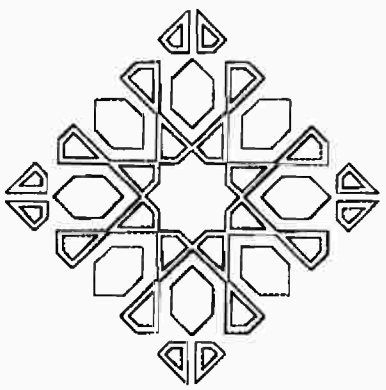

[1] مثلاً "**على قدر أهل العزم تأتي العزائم**".

بالمناسبة: هذا المطلع "المنظوم" حكمة.. ومنطق وتجربة واسعة..، يُستأنف إلى الفهم المباشر دون غموض.. ولا إبهام، إذ هو حديث العارف.. الشارح.

فـ "النموذج":

نظم "المتنبي" قد يكون - وخاصة في حالات الصفـاء والانفـراج - مـن أعذب[1] الشعر وأجمله..، راجع مثلاً:

كـم قتيـل كمـا قتلـت شـهيدِ ... ببيـاض الطلـى.. وورد الخـدود

أو..:

أ عيـداً نـرى، أم زمانـاً جديـدا ... ..أم الخلـق بشـخصك حيّـاً أُعيـدا

أو..:

أيـدري الدمـع أي دمٍ.. أراقـا ... وأي قلـوب هـذا الركـب شـاقا

أو..:

مـن الجـآذر في زيّ الأعـاريب ... حمـر الحلـى والمطايـا.. والجلاليـب

أو..:

مغـاني "الشِّـعب" طيبـاً في المغـاني ... بمنزلـة "الربيـع" مـن الزمـان

.. والعكس - حين تهيج نفسـه، وتُولّعـه أشـجانه، .. أو تعـود ذكـرى مآسيه - "وخاصة في رثاء جدته":

ألا لا أرى الأحداث مدحـاً ولا ذمّـا ... فما بطشها جهلاً.. ولا كفّهـا حلما

وعد -أيها القارئ- لـ:

لا افتخـار إلا لمـن لا يضـام

---

[1] وقد فنّد الرواة - النُّقاد - القول المشـهور /المنسـوب/ لـ الشـاعر الأمـوي جريـر أن: (أعذب الشعر أكذبه).

أو../أُطاعن خيلاً مـن فوارسها الدهـر

أو../ فـؤاد مـا تسـليه المـدام[1]

أو../ أفاضل الناس أغراض لـذا الزمـن

أو../ واحر قلباه .. ممـن قلبـه شـبم[2]

أو../ بما التعلـل!، لا أهـل.. ولا وطـن

أو "الحمى[3]"/ ملومكما يجل عن الملام

أو../ أمـاتكم قبـل موتكـم الجهـلُ !

أو../ صحـب النـاس قبلنـا ذا الزمانـا

أو../ عيد بأية حال عُدت يـا عيـد![4]

---

[1] أي: الخمر.

[2] شبم: أي بارد..، وهي في عتاب أمير حلب "سيف الدولة".

[3] .. جاء في الحديث عنها .. – إذا أصابت المؤمن في ليلة – قوله صلى الله عليه وسلم : (ذاك نصيب المؤمن من النار) .

[4] وأذكر لأديبنا (د. حسن الهويمل) نثر لا يخلو من تعجّب في قراءته لمطلع هذه القصيـدة حين قال: أحرق أبو الطيب أوراق المتفائلين بالمناسبات السعيدة.. – يعني باستفهامه هذا- - وقال حمد الحجي.. موازياً المقال، ومواسياً للحال:

عيـدُ الغريـب مِـقامٌ وانبعـاث أسـى ودمعـه – إن شـدا الشـادون.. – تغريـدُ !

..ونظم على رويها (د. نذير العظمة):

عيـد مضـى ومضـى مـن بعـده العيـد لا الكـرم كـرم ولا العنقـود عنقـودُ

.. فكيـف لا تطلـع الأزهـار في فنـن وفوقـه تُـذرف الدمـع.. المواعيـدُ

جـار الزمـان علـى عـودي فقصّفـه وكـان مـن قبـل أيكـاً وهـو أملـودُ

لتكتشف ما.. لدى هذا "الشاعر" من خزائن الدُّر، وودائع الجواهر.. بما يفيض به عبير: "نظمه"!.

إذ.. حين تصافح "ديوانه" ليأخذ لُبابك سبكه للكلمات واستخراجه للمعاني وبراعته التصويرية، وحُسن تمثيله، وبديع طباقه، ورقّة ألفاظه، وجميل البناء لديه، ونشوة في التعبير..إلخ،[1] كل هذا مما يتخلل أبياتَ قصيده..

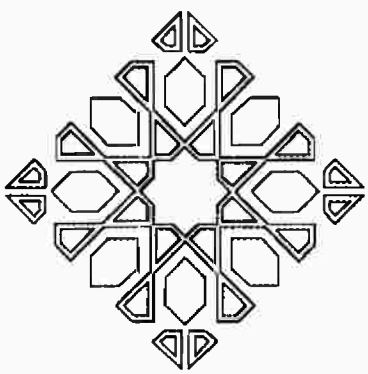

---

[1] كقوله.. لأبي العشائر -.. مُعرّضاً الفرق بين مدحه، ومدح غيره:

ليس قولي في شمس فعلك كالشمـ ـس ، ولكن كالشمسِ في الإشراقِ
(شاعرُ المجدِ) خِدنه شاعر اللّفـ ـظِ ، كلانا ربُّ المعاني الدقّاقِ
..لم تزل تسمع المديح.. ولكن صهيل الجياد غير النُّهاقِ

"الأطلال"

غنيٌّ عـن الأوطـان.. لا يسـتخفني　　إلى بلـد سـافرت عنـه إيـاب

.. أو - أيضاً -:

خلقـت ألوفاً لـو رجعـت إلى الصبـا　　لفارقت شيبي موجـع القلـب باكيا

.. لم يقف المتنبي على الأطلال ليبكي "على ماضٍ تولّ"؟![1]..

بل من قبيل التذكر[2] - لا الحنين والتمني بعودته - :

لا تحسـبوا ربعكـم ولا طللـه　　أوّل حـي فراقكـم قتلـه

كأني بهذا الفارس المغوار، قائلاً:

لا تلـقَ دهـرك إلا غـير مكـترث　　مـا دام يصحب فيـه روحـك البـدن

يَدفع نفسه دفعاً إلى "المرمى" المراد..

---

[1] ..أو كما قال أبو نواس:

عاج (الشقي) على الرسم يُسائله ..!

بل واستفهامه هذا..، أوضح:

مـالي بـدار خلـت مـن أهلهـا شُـغلٌ[*]　　ولا شـجاني لهـا شـخصٌ.. ولا طلـل

ولكنه.. يقول - ناقضاً -:

يـا خليلـيَّ سـاعة لا تريمـا　　وعلـى ذي صبابـةٍ فأقيمـا

مـا مَرَرنـا بـدار زينـبَ إلا　　فضـح الحـبُّ سـرّنا المكتومـا

-[*] ومعنى صدر البيت من قول الناظم:

ألا حيّ من أجل الحبيب المغانيا..إلخ-

[2] مررت على دار الحبيب فحمحمت　　جوادي، وهل تشجي الجياد المعاهد؟

فالتغني بتلك الأطلال.. لا يُعيرها المتنبي أكثر من ذكراها فحسب! .. لأنها -فقط.. -:

منازل خاللت السرور بها [1]

إلا أن المُطّلع على ديوان شاعرنا يجد شيئاً من ترديد المعاهد والربوع..، وإطلالتها في بعض مطالع قصائده كقوله:

لكِ يا منازل في القلوب منازل ... أقفرتِ أنتِ.. وهن منك أواهل

وقوله أيضاً:

فديناك من ربع وإن زدتنا كربا ... فإنك كنت الشرق للشمس والغربا

- بل.. وكيف جلبت "تلك المراتع" الموت قبل موعده:

ذكر الصبا ومراتع الآرامِ[2] ... جلبت حمامي قبل وقت حمامي[3]-

ومجارات عينيه.. لتلكم أبين دليل:

أجاب دمعي..، وما الداعي سوى طلل ... دعى فلبيت قبل الركب والإبل

ظللت بين أُصيحابي أكفكفه ... فظل يسفح بين العذر.. والعذل

---

[1] محمد بن عثيمين.

- وقال الآخر:

ما بكينا على "زرود".. ولكنا بكينا على أيامنا في زرودِ

[2] ..جمع (ريم) صغير الغزال.

[3] قيل أنها في مدح سيف الدولة "قبل لقائهما" بـ ١٦ سنة وكان المتنبي يبلغ العشرين من سنّه.

- انظر ما تقدم هامش (٢) ص٣٣ -

إلا أن هذا لا ينفي مُطلقاً ما أسلفت.

..فالإنسان بطبعه حب الماضي لأنه يعني الطفولة -الصفاء.. والنقاء..- والذكريات، والأكثر من ذلك فراراً من (الواقع) -بخاصة إن كان مُرّاً-

..وقد يكون ما يعنيه شاعرنا من تلكم:

وما شرقي بالماء إلا تذكراً ... لماء به أهل الحبيب نُزول[1]

أو السرور الذي "يرى" أنه لم يدركه من الزمان:

أتى الزمان بنوه في شبيبته ... فسرّهم.. وأتيناه على الهرم![2]

قد يكون إيضاحي غير وافٍ، لكن ما سنجده عند الشاعر في (الرسوم..، ومراتع الآرام) هو:

الخيال البعيد، وذلك الماضي.. الـ(كان)[3] -فحسب-!

لأنه تغرّب لا مستعظماً غير نفسه.. ولهدف - سامٍ - .. كنّاه بـ:

---

[1] إذاً فهذا السبب.. - كما يبني له المرقش الأكبر -:

فقولا لها ليس الظلال أجازنا ... ولكننا جزنا لنلقاكمْ.. عمدا

إنما (عبد الله بن الدمينة) يقول - مبيناً -:

ولكن قرب الدار ليس بنافع ... إن كان من تهواه ليس بذي ود

[2] .. وإذا كان عهده "هرم الزمان"!، فما نقول نحن.. بـ"زماننا" ؟. قال فواز اللعبون - يبني على هذا الإنشاء -:

أتيتم زمان المجد وهو أخو صبا ... وجئناه كهلاً.. قد حنى دوننا ظهرا

[3] قال عنه - معبّراً - إيليا أبو ماضي:

بحيرة "الحبّ" حيّاكِ الحياة ... فلكم كانت مياهكِ بالنجوى تُحْيِنا

مـــا ابتغـــي جـــلّ أن يُســـمى

وقد تكون أطلاله على قافية قوله:

ألا ليـت شـعري هـل أقـول قصيـدة فـلا أشـتكي فيهـا ولا أتعتـب؟..

بمعنى: إن كان هنـاك "هـمٌّ" حضـر.. وحـاصر شـاعرنا في وقتهـا عتـب (الزمان) الذي لم يُبلّغه مراده، وإلا أن لم يحضره تهيّمه.. وجد همّاً آخر - قد يكون:

لحى الله ذي الدنيا مناخـاً لراكـب فكـل بعيـد الهـمّ فيهـا مُعـذّب-

.. حتى الجواد.. لا ينسى ماضينا بذي الطلال!

مررت على دار الحبيـب فحمحمـت جوادي، وهل تشجي الجياد المعاهد؟

وهكذا "يُبكينا" على الرّسم القديم، والصبا الـذي خالطـه منّـا.. وأقـام: (أيام تجريرنا بدارٍ آثلة أعوادنا..)

بكت عيني "اليمنـى"، فلمـا زجرتهـا عن الجهل - بعـد الحلـم - أسـبلتا معا[1]

فأطلاله/ بها من دقّة التصوير ما يُصـيّرك كـأنك.. أمـام ربوعـك أنـت، وقام "هو" ليتحدث بلسانك - ما حال عنه ضعف عبيرك -:

لـكِ يـا منـازل في القلـوب منـازل[2]

---

(1) السعدي الشيرازي.. بالمناسبة قال ذلك ارتجالاً في وداع صديق له - مع بيتين آخرين.

(2) بالمناسبة.. إذا ما عاين "المتذوق" في جميل ما عناه في التحسس.. لصدى "أول منزل" - الطلال - وعهد الصبابة.. بـ "قول أبي تمام":

كـم مـن مـنزل في الأرض يألفـه الفتـى وحنينـــه أبـــداً لأول مـــنزل

-...

ثم.. أيها "الخرب"من .. إعمارنا بك:

أقفرتِ أنتِ، وهنّ منك أوآهل[1]

.. وهن - أي القلوب-:

يعلمن ذاك.. وما علمت، وإنما أولاكما يبكى عليه العاقل

... وهذا التذكّر - بعد أُمّة[2] - :

ذكر الصبا ومراتع الآرام

ماذا فعلت.. هذه الذكرى:

جلبت حمامي.. قبل وقت حمامي

أي: كأن تلكم: أماتتني قبل أوآن الأجل!

.. أو حين "يتودد" لها .. بـ

أثلث! فإنّا أيها الطلل .. نبكي، وترزم تحتنا الإبل

.. نحن "نبكي" والإبل حانية "كالباكية".. فلما لا تكن "يا طلل" ثالثنا بذا الحال؟

...-

لقارنَا في "تذوقهما" أيهما الأجمل..؟

فلأن حظي الطائي "أبي تمام" بالسبق "تاريخياً" فالأكيد.. أن لصاحبنا -الجعدي- السبك..، وذا ما لا أجد له لديّ - على الأقل - اعتراض!.

[1] ..وهن - القلوب - أوآهل.. كما يعلّق أحدهم بـ:

(أنها: آهلة بالوجد.. والذكريات).

[2] .."الأمّة".. العهد الطويل، قال تعالى في سورة يوسف -عن أحد السجينين-:

﴿وادّكر بعد أُمّه﴾

وكالمعتذر من عدم إجابة ذا الجماد - بـ ألإثلاث..!-:

لـو كنـت تنطـق قلـت معتـذراً بـي غـير مـا بـك.. أيهـا الرجـل[1]

.. فيا.. "ربوعي" ومرتع "الصبا" إني:

بكيت يـا ربـع حتى كـدت أبكيكـا

و.. ربما لما بها من ذكرى - أو/ صدى السنين الحاكي - لا تغيب على تقادم عهدها..، كالحب الأول..:

ولكـنّ حـبّ خـالط القلـب بالصبـا يزيـد علـى مـرّ الزمـان.. ويشـتدُّ

..ولا ننسى قبل طيّ صفحة "أطلاله" أن نذكـر بـأن أبـا الطيـب -كمـا قيل- شارك "عنترة" في ثورته على مطـالع القصـائد أطـلالاً أو تغـزّلاً... بقوله - إنكاراً لانسيابة مثل هذه العادة[2] - :

إذا كـان مـدح فالنسـيب المقـدّمُ أكـلُّ فصيـح قـال شـعراً متيـمُ؟

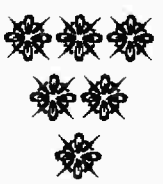

---

[1] ليذكرنا هذا "العجز" بما قاله الأعشى - مُستفهماً -: و..**هل تستطيع وداعاً أيها الرجل؟**

[2] ..كما سبقه أبو نواس بـ:

قـل لمـن يبكـي علـى طلـل درسْ واقفـاً، مـا ضـرّ لـو كـان جلـس

- وقوله أيضاً:

دع الرسـم الـذي دثـرا يُقاسـي الريـح والمطـرا

"الفراق":

أما "الفراق"[1] فإنه ما أعهدُ هو "توأمي" لو كان بينٌ يُولدُ

ثمّ يسبك.. هذه الحكمة - كـ علّة أو سبب! -:

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سُبلا

... والرحيل:

ألفت ترحّلي.. وجعلت أرضي..إلخ

.. وهكذا يفعل به.. "الوداع"[2] أبداً:

حُشاشة نفس.. ودّعت يوم ودّعوا فلم أدرِ أي الضا عنين أُشيّعُ

إن عمر هذا - الشاعر - قضاه مُتنقلاً من بلد.. إلى آخر، وربما الشّاذ عن هذا المنوال.. ما عبّر به في قصيدة "الحُمّى":

أقمت بأرض (مصر) فلا ورائي تخبّ[3] بين الركاب.. ولا أمامي

فما أقام سِوى مُقامٍ عند "سيف الدولة"..[4]

وبرغم جمال تلك الأيام.. إلا أنه لم يعبأ بها.. على حد نظم وتيرته:

---

(1) ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارهما "العمر"

(2) ..ومن جميل ما قيل -..مناسبةً -:

ومن عجب أني أحنّ إليهم وأسأل عنهم من لاقيت.. ومن معي

وتفقدهم عيني، وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي، وهم بين أضلعي

(3) تخب: أي تسرع.

(4) تقريباً - عقداً من السنين بـ : "حلب".

غـني عـن الأوطـان لا يسـتخفني إلى بلـد سـافرت عنـه إيـاب

لـذا كـان ـ علـى مـا عهـد مـن نفسـه الـترحل ـ .. أولى أن يقـول "للحمداني":

حيـي مـن إلهـي أن يرانـي وقـد فـارقت "دارك" واصطفاكـا

من أن يقولها لـ "عضد الدولة" .. ولكن ..!

ـ إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم..فالراحلون هموا[1] ـ

.. وقد شبّ معه "الرحيل" والبـين منـذ فـارق "الكوفـة" .. طمِعاً.. في ولاية أو مال.. يُنيله الولاية، ولعل بعض ذا.. ما جعله ينفث.. في رثائـه لجدته:

تغرّب.. لا مسـتعظماً غـير نفسـهِ ولا قـابلاً إلا لخالقـه حكمـا

.. هذه النفحة "المُعظّمة للذات" والتي تحكمت بـ "جنبيه" جعلت لإقـرار يقرُّبه، ولا محل يحلّ به، سوى وقت نزرٌ عسى ـ وذا المطلب ـ يجد منـه.. ما جدَّ.. له... ليصل مناه..

أمسيت..أروح مُـثرٍ خازنـاً ويـداً "أنـا" الغـني، وأمـوالي المواعيـد

إلا أنه على عادته ـ التي لا يدعها ـ في الزفر عما يُكنّ داخله.. باثاً[2]:

---

[1] ..وأجمل ما يعارضه قول من سبقه:

اسـتودع الله قومـاً مـا ذكرتهـم إلا وهـلّ مـاءُ العـين.. مـن عيـني

[2] أو/ قول "أبي تمام":

لا تسـقني مـاء الملام، فـإنني صـبٌّ قـد اسـتعذبت مـاء بكـائي

.. مـن خـصّ بـالذمّ الفـراق فـإنني من لا يرى في الدهر شيئاً يُحمـد[1]

.. ولو التفت - الآن - إلينا .. لقال لسان حاله:

لا تلـم كفّـي إذا السـيف نبـا[2] صـحّ مـني العـزم، والدهـرُ أبـى[3]

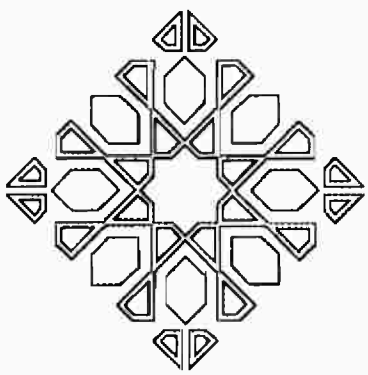

---

[1] وقال - توضيحاً - في مطلع رثائه للتنوخي:

إنـي لأعلـم.. واللبيـب خبـير أن الحيـاة وإن حرصـت غـرورُ

ورأيـت كُـلٌّ مـا يُعلـل نفسـه بتعلّـة.. وإلى الفنـاء يصـيرُ

[2] أي: أخطأ.

[3] - شاعر النيل - حافظ إبراهيم.

" الغزل ":

فمن شاء فلينظر إليّ فمنظري نذيرٌ إلى من ظنّ أن الهوى سهل

لا يُعاب المتنبي في مجون أو شراب أو ترف أو عبث..

لأنه منذ صباه كان جاداً رزيناً، لا يهتم بالغواني ولا ينصرف إلى المطربات من الألحان:

وغير فؤادي للغواني رميّة وغير بناني للزجاج[1] ركاب

تركنا لأطراف القنا كل شهوة فليس لنا إلا بهن[2] لعاب

أعزّ مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

وهذا لا تزكية له، بل لأنه جَدّيٌ... وذا طموح وأحلام، شغلته عن حسان الوجوه:

شغلت قلبه حسان المعالي عن حسان الوجوه والأعجاز

فلم يتلذذ بالهوى وصبّ القلب، رغم ماله من غزليات تجدها في مطالع قصائده، كقوله في وصف "الأسد":

في الخدّ إن عزم الخليط[3] رحيلا مطرٌ.. تزيد به الخدودِ محولا

أو في أُخرى..

ما لنا كلنا جوٌ يا رسول أنا أهوى .. وقلبك المتبول

---

[1] ويرويها ابن جني للرخاخ "من أدوات الشطرنج".

[2] الضمير يعود على "الشهوات".

[3] الخليط: العشير أو قريب السكنى -والقصيدة في مدح الفارس "بدر بن عمار بن إسماعيل"-

ومع ذلك فله أبيات بديعة يحسن منها قوله:

جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي ... فأصبح لي عن كل شغل بها شغل

سبتني بدلٌ ذات حسن يزينها ... تكحل عينيها وليس لها كحل

كأن لحاظ العين في فتكه بنا ... رقيبٌ تعدّى، أو عدوٌّ له دخل

ثم الاعتراف بنار العشق:

يا عاذل العاشقين دع فئة ... أضلّها الله.. كيف تُرشدها

ففي فؤاد المحب نار جوى ... أحرُّ نار الجحيم أبردها

وقوله - وهو صبي[1] - :

بأبي..[2] من وددته فافترقنا ... وقضى الله بعد ذاك اجتماعا

فافترقنا حولين... فلما التقينا ... كان تسليمه عليّ وداعا

أو تمهيد.. للإعتذار[3]:

---

[1] .. ويُذكر أن هذين البيتين أول ما نظم - انظر ما يأتي ص١٣٢ -

[2] ..أي: أفديه بأبي.

[3] وقد زعم - من زعم - أنه كان هناك ودٌّ خفي لأخت الأمير.. في قلب شاعره مستدلاً - بهذا الزعم - من قوله.. بعد الفراق:

رمى.. واتقى رميي، ومن دون ما اتقى ... (هوى) كاسراً كفي وقومي.. وأسهمي

وتأكيداً.. من رثائه فيها - حين عزّى أخاها.. في فقدها - بقوله:

ولا ذكرت جيلاً من صنائعها ... إلا بكيت.. (ولا ودٌّ بلا سبب)

وهل أدل على هذا الاستنتاج -ولا أقول زعمٌ- قول شاعرنا..مخلّداً:طوى الجزيرة[*]..إلخ

[*] وهذان البيتان أخذا من الخلود - استشهاداً - ما الله به عليم!.

-...

رمى واتقى رميي ومن دون ما اتقى[1] هوى كاسراً كفي وقوسي.. وأسهمي

ومن شواهد صنيعه الفني قوله:[2]

سفرت وبرقعها الفراق بصفرة سترت محاجرها ولم تسك برقعا
نشرت ثلاث ذوائب من شعرها[3] في ليلة فأرت ليالي أربعا
واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتني القمرين في وقت معا

وأيضاً له أبيات "جميلة" متناثرة هنا وهناك:

كل جريح تُرجى سلامته إلا فؤاداً رمته عيناها

* * *

ففي تغرمِ الأولى من اللحظ مُهجتي بثانية و"المتلف الشيء غارمه"[4]

* * *

حتى في عهد الشاعر - انظر ما تقدم ص١٦ هامش (٢) -

[1] أي: من الوقاية، ..ليذكرنا باختراع نابغة بني ذبيان:

سقط النصيف، ولم تُرد إسقاطه فتناولته،.. و(اتقتنا) باليدِ

[2] لعل رأي الأستاذ جورج غريّب في محله - هنا - عندما قال:

"يلتجئ المتنبي إلى الجمال الفني[*] عندما تخونه حرارة العاطفة.. ويعوزه صدق الأداء".

باختصار ص٢٤٦ "المتنبي دراسة عامة".

- [*] أو ما يسمى بـ "الإخراج الفني" كما يفعل (أمير الشعراء) -

[3] ..وأخذ أحمد شوقي من هذا "الصدر"، فنظم:

ودخلت في ليلين: فرعك والدُّجى - ولثمتُ كالصّبح المنوَّر فاكِ -

[4] .. ولنُذكّر بهذه "القاعدة الفقهية".

وخصـــر تثبـــت الأبصـــار فيـــه كـأن عليـه مـن حـدق نطاقـا[1]

* * *

كلمـا عـاد مـن بعثـت إليهـا غـارمنّي..،وخـان فيمـا يقـول[2]

أفسـدت بيننـا الأمانـات عينـا هـا، وخـانت قلوبهـن العقـول

* * *

أنـتِ منّـا فتنـت نفسـك لكـنك عُوفيـت مـن ضنـى واشـتياقِ

ثم..:

لقـد حـازني وجـدٌ بمـن حـازه بُعـدُ فيـا ليتـني بُعـدٌ ويـا ليتـه وجـد

و.. حين يعترف:

شـيب رأسـي وذلّـتي ونحـولي ودموعـي.. علـى هـواك شـهودي[3]

أو يكون صادقاً حين يوجز عن حبيبه:

حبيـبٌ كـأن الحسـن كـان يُحبّـه فـآثره أو جـار في الـحُسن قاسمـه

---

[1] جاء في (الصبح المُنبي) أن "السري الرفاء" لما سمع المتنبي ينشده قال:

(..هنا والله معنى ما قدر عليه المتقدمون).

- وقد أخذ هذا المعنى.. في إنشائه، قول الآخر:

أحـاطت عيـون العاشـقين بخصـره فهـل لـه دون النطـاق نطاقـا -

[2] أخذ نزار قباني من هذا النظم.. فأنشأ:

كـم رسـول أرسـلته لأبيهـا ذبحتـه تحـت النقـاب العيـون

[3] ألا يكفي.. هؤلاء الشهود!!

.. ويأتي الحكيم هنا.. ليعرّف "ماهية الحب":

الحب: ما منع الكلام الألسنا وألذُّ شكوى عاشقٍ ما أعلنا

وتهتز النفس الأبية.. حين ينفذ الصبر:

أجد الجفاء على سواكِ مروءة والصبر.. إلا في نواكِ جميلا

حتى الدلال - برغم عدم التعامل به أو معه.. إلا هنا - :

وأرى تدللكِ الكثير محبباً وأرى قليل تدلل مملولا[1]

وهل شخصُ هذا الأبيّ المغوار.. يتحول لمنذر يُهيب من يعشق من "العشق":

فمن شاء فلينظر إليّ فمنظري نذيرٌ إلى من ظنّ أن الهوى سهل

.. ونعود إلى دُرّ الصِّبا، مهد الفتوة (أيام تحرير.. ذيولهُ، بدارٍ آثلة عوده):

عمرك الله... هل رأيت بدوراً طلعت في براقع وعقود؟

راميات بأسهم ريشها الهد ب، تشق القلوب قبل الجلود!

.. وكأني بك تجيبه بـ "لا.." إن لم يخُامرك هوى مُهاة أو جُؤذرٍ:

مَن الجآذر؟.. في زي الأعاريب حمر الحُلى، والمطايا.. والجلابيب

.. وإن سألت سؤال المتجاهل.. أو شككت[2]:

---

[1] قال صنوه (المعري):

منك الصدود، ومني بالصدود رضى من ذا عليّ بهذا.. في هواك قضى؟!

[2] ليس الشكّ المزعزع لليقين، لكنه المقرّب - بسلكه - للحقيقة، قال "ديكارت" -ت١٦٥٠م-: (الشك يؤدي لليقين)

إن كنت تسأل شكّاً في معارفها فمن بلاك بتسهيدٍ وتعذيب

أكيد سوف تُجيب.. "هُنّ"[1] !، اللواتي - كما يصفهن -:[2]

ما أوجه الحَضرَ المستحسنات به كأوجه البدويّات الرّعابيب[3]

ثم هذا التنهد والتأوه والآه.. على "شامية" - خلى بها-..:

أواه بديل من قولتي وآها لمن نأت والبديل ذكراها

أواه لمن لا أرى محاسنها وأصل واهاً وأواه مرآها

.."شاميةٌ" طالما خلوت بها تُبصرُ في ناظريّ مُحيّاها

ثم هو لا يتذكر الطلول حُبّاً "بالطلول" .. إنما بمن كان بها:

- وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا - [4]

/...

---

[1] بنات حواء.. فهل على (ابن الفارض) من عتب حين يستعجب:

هل سمعتم أو رأيتم أمداً صاده لحظ مُهاة.. أو ظُبي!

..ويسمو على الشاهد، قوله صلى الله عليه وسلم:

(ما تركت بعدي فتنة أشد على الرجال من النساء) - الحديث

[2] - ..قال (د. موسى العويس) معلقاً:

(أكبر المتنبي الجمال المعنوي للمرأة، المتمثل في وقارها، وعفتها، وحشمتها، ورزانتها، ورصانتها، وصفاء نفسها، ونقاء وجدانها وامتلاكها ناصية البيان. ورأى أنّ هذه السجايا لا يمكن أن تتوافر إلا عند المرأة الأعرابية التي حافظت على هويتها من أوشاب الحضارة، و لم يغرها السراب أو تنخدع به) - الجزيرة/ عدد ١٠٥٦٥ -

[3] جمع رعبوبة وهي: الطويلة الممتلئة.

[4] كما يقول (مجنون ليلى).

إن الذيـــن أقمـــت وارتحلـــوا أيـــــامهم لديـــــارهم دول
الحســـن يرحـــل كلمـــا رحلـــوا معهـــم.. ويـــنزل حيثمـــا نزلـــوا

وهذا ما جعل للطلول بالقلب "طلول" ..للأحبة، ومغنىً. لأيام كانوا بها - إذا.. ما:

بـدت قمـراً ومـالت خـوط بـان وفـاحت عنـبراً ورنـت غـزالا[1]-

لـ.. أن من قلبه مُعلّق بآمال وطموح شغله عن القرار.. وأبعد به الدار.. وقلل منه المزار، لا يُنتظر منه غير الحديث عن همّتـه وقصـده، أو البحـث عن الوسيلة المُبلّغة، والطريقة الناجعة..لنيلهِ!..

..أمّا وشاعرنا كما نعرف عنه.. من قوله:

ممـا أضـرّ بـأهل العشـق أنهـمُ هووا.. وما عرفوا الدنيا وما فطنوا
تفنـى عيونهـم دمعـاً وأنفسـهم في إثـر كـل قبيـح وجهـه حسـنُ

فأبعد من أن يأسره طرفٌ كحيل أو خدٌّ أسيل..،

فما أعجزنا أن نُعرّف بهذا الشاعر حين نذكر بدائعه بهذه "الوجهة"!

..مثلاً كقوله - من شكوى مافعل به الهوى-:

كفـى بجسـمي نحـولاً أنـني رجـلٌ لـولا مخـاطبتي إيـاك لم ترنـي[2]

---

[1] قال - من قبله.. - أبو نواس (بـ.. أربع استعارات):

يبكـي، فيـذري الـدرّ مـن نرجـس ويلطـم الخـد الـورد بالعنـاب

[2] .. وهي مُبالغة - كعادة الشعراء.. - وقيل:

رأى رجلٌ بشار بن بُردٍ - فإذا هو ضخم الجُثة.. - فقال له أين قولك:

-...

أو القول .. في عتابٍ جميل:

حِلْتِ دون المزار،.. فاليوم لو زرتِ ... لحـــال النحـــولُ دون العنـــاق

وأحسن بـ (إجمال).. عن أهل ودّه:

ولـــو زلتـــم.. ولم أبككـــم ... بكيـــت علـــى حبّـــي الزائـــلِ

أو.. سماحة العاشق - لدنه -:

وقنعـــت باللقيـــا، وأول نظـــرة ... (إن القليـل مـن الحبيـب كثـير[1])

.. ونصحه.. للهائم..

تذلل لها.. واخضع على قرب النّوى ... فما عاشقٌ من لا يـذل.. ويخضـعُ

و - أخيراً - تعريفه[2].. لـ "الحب" :

الحـب مـا منـع الكـلام الألسـنا ... وألـذُ شـكوى عاشـق مـا أعلنـا

و.. رغم هذا الإبداع - وغيره كثير[3] -، إلا أن (الغزل) من الفنون التي

...

إن في بُـــرديّ جســـماً.. نـــاحلاً ... لـــو توكّـــأتِ عليـــه لانهـــدم

.. وأنت كالثور؟

فقال له.. ألم يقل الله سبحانه وتعالى في كتابه: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾.

..على أن مبالغة بشار - هذه -.. لا تصل إلى مدى عبير شاعرنا.. بـ

وشـــكيّتي فقـــد الســـقام لأنـــه ... قـــد كـــان.. لمـــا كـــان لي أعضـــاءُ

[1] وكم ذهب - هذا العجز - مثلاً..!

[2] .. "مجازاً" - وقد كرّرت هذا لمسوغٍ.. لذلك -

[3] كما قال.. في لقاء.. بعد "ضنى البين"

وتوقّـــدت أنفاســـنا حتـــى لقـــد ... أشـــفقت أن تحـــترق العـــواذل بيننـــا

لم يلتفت لها الشاعر، وإنما تكلّفها "تماشياً مع سجية الشعراء"-ربما..[1]- غزلٌ ظهر به جهد العقل والصنيع الفني.. أكثر من أثر العاطفة ورقّة الشعور، كيف لا وهو القائل:

أطعت الغواني قبل مطمح ناظري إلى منظر يصغرن عنه ويعظم

وكأن أبا الطيب اصطنع الغزل[2]، أو فرضه على نظمه - ألم يقل وكأنه يعني.. ذاته/ **وقد يتزيّا الهوى غير أهله..** -

---

[1] وإذا ما أردنا أن نُجازف - في الحُكم على غزله - .. استعرنا قول الشاعرة عائشة التيمورية (ت١٩٠٢): (أنه لم يكن "الغزل" في شعره إلا من قبيل "تمرين اللسان"!)

و..يعلّق د/ غازي القصيبي: (المرأة في أكثر قصائد الغزل ليست امرأة، إنما هي "رمز".. لكن يُبنى عليها - فقط - لأنها كائن جميل يأسر، وهو - هذا النمط - تقليد قديم!)

..على أننا نستثني من تعليله - الواقعي - أهل التجارب.. في أسر الهوى، كمسلم بن الوليد -صريع الغواني - القائل.. بنفس تنهّد العاشق:

سقتني بعينها الهوى،.. وسقيتها فدبّ دبيب الراح.. في كل مُفصلِ

[2] قال تركي السديري - رئيس تحرير صحيفة (الرياض) - عن صنعة الغزل لدى المتنبي:

".. لم يبحث متذوقوا الشعر في قصائد المتنبي عن إبداعات الغزل التي تأتي عنده متكلّفة وكأنها بعضٌ من كلّ ..لا بد من تواجده حتى لا يكون ذلك الكل ناقصاً عند من يتابعه..".

الأبسط في إيضاح ذلك قول أنيس المقدسي - مقدّماً لغزل البحتري هو:

(نوع من الفن الكلامي يصدّرون به قصائدهم تمهيداً لما يقصدون).

فالغزل يحتاج إلى فن عاطفي صادق[1]. أمـا الأثـر الغنـائي الخـالص عنـد الشاعر فهو قليل.

... والذي يظهر أن قلّة هذا الأثر - الغنائي - أتت من قلّة توجّد الهوى .. بداخله[2] - الذي لم يُشغل به نفسه -، ألم يقل:

لا يعرف الشـوق إلا مـن يكـابده ولا الصبابـة إلا مـن يُعانيهـا[3]..؟!

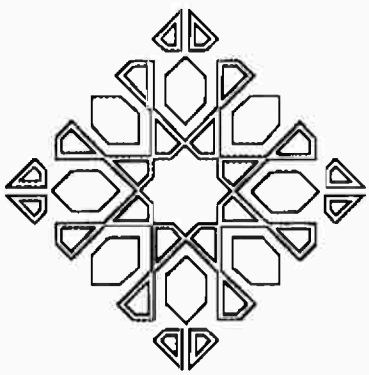

---

[1] .. والذي يأتي - أو يتولّد - من تجربة..، أو نتاجُ تجربة - **ولا كل من عانى الهوى... بُمتيمِ** -

[2] لكن - الحق/ أنه مهما تنصّل الإنسان من هذا الداء (الغزل)، إلا أنه مُتغلغل في النفس الشجية، أو الشاعرة مثله.

[3] قال الشاب الظريف:

فعسى يعينـك مـن شـكوت لـه الهـوى في حملـه، فـ (العاشـقون رفـاق)

"الذاتية": [1]

شاعرنا قد يكون من أكثر الشعراء حديثاً عن نفسه: متفاخراً..

فليفخر "الفخر" إذا غدوت به ... مُرتدياً خيره.. ومنتعله

و..

أبدو .. فيسجد من بالسوء يذكرني ... فلا أُعاتبه صفحاً وإهوانا

ومتعاظماً:

تغرّب لا مستعظماً غير نفسه ... ولا قابلاً إلا لخالقه حكما[2]

أو..:

أمط عنك تشبيهي بما وكأنما ... فما أحدٌ فوقي ولا أحد مثلي

ومعجباً:

إن أكن معجباً فعجب عجيب ... لم يجد فوق نفسه من مزيد[3]

---

[1] قال د. غازي القصيبي - سيرة شعرية، ص٩٦ -:

شعر المتنبي - في نهاية المطاف - ينطوي على عشق واحد.. هو عشق الذات، وهذا العشق هو الذي أعطانا شعراً كهذا:

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه ... حريصاً عليها مُستهاماً بها صبا)

[2] -.. كما قال عنترة:

لا تسقني ماء الحياة بذلّةٍ ... بل فاسقني بالعزّ كأس الحنظلِ -

[3] ..كقول أحدهم - من.. عهدنا -:

ومنّا الوزيرُ، ومنّا المشير ... ومنّا الخطيرُ.. ومنّا "أنا"!

..ويفرط الدكتور عبد العزيز الدسوقي - كتابه: عالم المتنبي.. الشعري - في العبير عنها: -...

.. لم لا ..؟ و..:

الخيـل والليـل والبيـداء تعرفـني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وشجاعة:

صحبت في الفلوات الوحش منفـرداً حتى تعجب مني القور والأكم[1]

وإقدام:

لتعلـم مصـر ومـن بـالعراق ومـن بـالعواصم أنـي الفتـى
وأنـي وفيـتُ وأنـي أبيـت وأنـي عتـوت علـى مـن عتـا
.. ومـن يـكُ قلـبٌ كقلبـي لـه يشـقّ إلى العـزّ قلـب التـوى

جراءة..:

يحـاذرني حتفـي.. كـأني حتفـه وتنكزنـي الأفعـى. فيقتلهـا سُـمّي

وسموّاً:

كـم تطلبـون لنـا عيبـاً فيعجزكـم ويكـره الله مـا تـأتون والكـرم
ما أبعد العيب والنقصـان مـن شـرفي أن الثريـا وذان الشـيب والهـرم

"شخصية هذا الداعية السياسي والمفكر القومي والشاعر العبقري واضحة تزحم هذه القصائد، لقد كان يمدح نفسه ويتغنى أشواق روحه، في بداية معظم هذه القصائد وفي خواتيمها، وأحياناً كانت تشغله ذاته عن شخصية الممدوح، ولهذا عندما كان يرتبط بأمير أو وزير كان يقصر شعره عليه، لأنه كان يحقق (ذاته) من خلال هذا الأمير أو الوزير، وقد ظل مرتبطاً بسيف الدولة تسعة أعوام كاملة أنجب خلالها أجمل شعره".

[1] القور: جمع قارة/ الأرض ذات الحجارة السوداء. الأكم: جمع أكمة (الجبل الصغير).

وثقةً ـ ليس لها مثيل ـ :

أسـري في ظـلام الليـل وحـدي كـأنّي منـه في قمـرٍ مُنـير

ثُمّ.. كل هذا قليل إذا عدنا إلى قصائد:

رثاء جدته/ **"ألا لا أرى الأحداث مدحاً ولا ذما"**

وقصيدة: **"إذا غامرت في شرف مروم"**

وعتابه (الشهير) لسيف الدولة: **"وآحرّ قلباه ممن قلبه شبمُ !"**

أو الحمى/ **"ملومكما يجلُّ عن الملام"**[1]

وفي الردّ على من زعموا موته: **"بم التعلل.. لا أهل ولا وطن؟"**

وأخيراً ـ وهي أولاً ـ قصيدة عهد الصبا:

لا بقومي شُرفتُ بـل شُرّفوا بـي وبنفسـي فخـرتُ لا بجـدودي

وبهـم فخـر كـل مـن نطـق الضـا د، وعـوذ الجـاني وغـوث الطريـدِ

وهل بعد هذا من ذاتيةٍ يبقى للحديث عنها..؟ لا أظن:

أن صخـرة الـوادي إذا مـا زُحمـت وإذا نطقـت فـإنني الجـوزاء

فـ..:

ما أبعد العيب والنقصـان مـن شـرفي أنـا الثريّـا وذان الشـيب والهـرم

ولا يفوتني التنويه بقوله "أنا الثريا"، كيف لا..! وهو القائل:

وإنـي لنجـم تهتـدي صحبـتي بـه ..إذا حال من دون النجوم سـحابُ[2]

---

[1] وفيها تعرّي واضح .. لهذا "الجواد" الذي أضرّ به (طول الجمام) أو الراحة.

[2] ليذكرنا.. بقول ندّه ـ في عصره ـ أبو فراس الحمداني:

-...

هذا التعالي[1] الذي - ربما - سبب له الحسد ممن حوله، حتى أن سيف الدولة كره من شاعره هذا التعاظم الذي بلغ منتهاه ..فجفاه..[2]

حتى حمل الشاعر أن ينظم:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام، وأنت الخصم والحكم!

وانتهاءً بقوله - كأنه استطال جفاء الأمير - :

-...

سيذكرني قومي إذا جدّ جدهم وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدرُ

- ومن معناه قول (ابن المعتز): لولا ظلمة الخطأ، لم يبن ضوء الصواب -

[1] .. إذ ليس بجديد - هذا التعالي - من الشاعر، ألم يقل في كنف أبي العشائر يمدحه:

لم تزل تسمع المديح ولكن صهيل الجياد غير النهاق

وكأنه يُشبّه الآخرين من الشعراء بالحمير - أعزكم الله -

..وقد قال - من قبل - دعبل الخزاعي

إني لأفتح عيني - حين أفتحها - على كثيرٍ، ولكن لا أرى أحدا !

وصدق عليه قول أبي تمام:

يُسيء بالإحسان ظناً.. لا كمن يأتيك، وهو بشعره مفتونُ

...ولا ننسى التوجيه الكريم قال تعالى ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾سورة النجم، آية٣٢.

[2] فقال - في ذا الجفاء - :

أرى ذاك الودّ صار ازورارا وأصبح طويل السلام اختصارا

تركتني اليوم في خجلة أموت مراراً وأحيا مرارا

- ولو .. استشهد (حينها) بغير شعره لقال:

وكنت أذم إليك الزمان فأصبحت فيك أذم الزمانا

وكنت أعدك للنائبات فها أنا أطلب منك الأمانا

إن كان سرّكم ما قال حاسدنا[1] فما لجرح إذا أرضاكم ألم[2]

المراد..

ومن يبغ ما أبغي من المجد والعلى تساو المُحايا عنده والمقاتل

ألا ليست الحاجات إلا نفوسكم[3] وليس لنا إلا السيوف وسائل

المجد والعلى..، إذاً أيتها النفس:

إن لم أذرك على الأرماح سائلة فلا دُعيت ابن المجد والكرم

و.. اعتزازاً: [4]

فموتي في الوغى عيشٌ لأني رأيت العيش في إرب النفوس

..رعب:

مَن لو رآني ماءَ مات من ظمأ ولو عُرضت له في النوم لم ينم

---

[1] قاصداً أبا فراس – بقوله حاسدنا – ورضي عنه سيف الدولة.

السبب: ..وكما قيل/ قد يكون بين المتعاصرين منعه من الانصاف، وهذا مما يعتذر لأبي فراس، الذي لا يُنكر على المتنبي قصب السبق في رِيادة القريض، إذ لا يمكن أن يغمط قدره.. مثله!!

[2] – وقال ابن الرومي:

لعل قلوباً قد أطلتم غليلها ستظفر منكم بالشفاء فتثلج

[3] أو.. إلا رؤوسكم.

[4] ولذلك تجده.. يُرسل .. كالناصح:

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

فرؤوس الرماح أذهبُ للغيظ وأشفى لغل صدر الحقود

صبر وتجلّد:

كأني دحوت الأرض من خبرتي بها ... كأن بنى الاسكندر السدّ من عزمي

فخر:

ما نال أهل الجاهلية كلهم ... شعري، ولا سمعت بسحري بابل

كبرياء:

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني ... فلا أُعاتبه صفحاً وإهوانا

عزم - بلا نظير - :

أُطاعن خيلاً من فوارسها الدهر ... وحيداً، وما قولي كذا ومعي الصبر

غرور وصل مُنتهاه:

أنا الذي بين آلاله به ... الأقدار، والمرء حيثما جعله

وتظهر الجهل بي وأ عرفه ... والدرّ درّ برغم من جهله

وثقة.. ليس كمثلها شيء:

يُسابق سيفي منايا العباد ... إليهم كأنهما في رهان

.. وننتهي عند هذه النفس العظيمة - لدى صاحبها - إلى مجلس الأدباء /و/ حُساده[1] ..في بلاط سيف الدولة، حيث تفجّرت: "بميميته" نفس الكبرياء عنده[2] بقوله:

---

[1] - .. أو ما خُيّل إليه.. من غرور الذات: أنهم كذلك!! -

[2] وكأنه يُوعز (على لسان غيره).. إلى من يعاتبه - على هذا الإفراط - بـ:

ولا أرضَ الجهل خِدناً وصاحباً ... ولكني أقبله حين أُحرج

سيعلم الجمع ممن ضمّ مجلسنا ... بأنني خير من تسعى به قدم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صمم

..الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

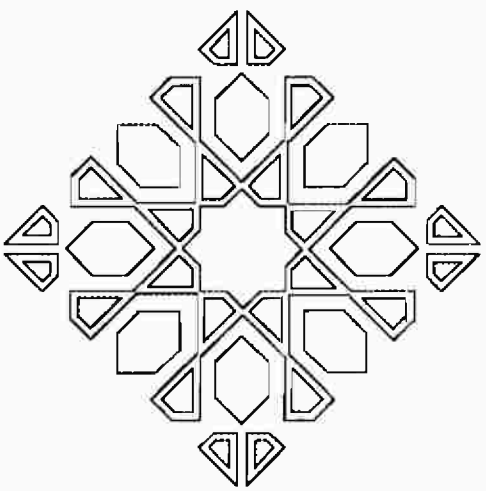

-...

- انظر .. مطلع ص٩٢ -

ترانيم[1].. على مقام "المتنبي"

- بلا.. تعليق!! -:

"أنا الطائر المحكي والآخر الصدى"

* * *

"أنا صخرة الوادي إذا ما زُوحمت وإذا نطقت فإنني الجوزاء"

* * *

"أنا تُرب[2] الندى، وربُّ القوافي" وسِمام العِدى، وغيظ الحسود"

* * *

"لا بقومي شرفت بل شرفوا بي "وبنفسي فخرت لا بجدودي"

* * *

"إن أكن معجب فعجب عجيب "لم يجد فوق نفسه من مزيد"

* * *

"لقد تصبّرت حتى لات مصطبر "فالان أقحم حتى لات مقتحم"

* * *

".. ولو برز الزمان إليّ شخصاً لخضّب شعر مفرقه حُسامي"

* * *

"أذاقني زمني بلوى شرقت بها لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا"

* * *

"أضمتني الدنيا فلما جئتها مستسقياً مطّرت عليّ مصائبا"

* * *

"أسري في ظلام الليل وحدي كأني منه في قمر منير"

* * *

---

[1] .. - ذاتيه -

[2] تُرب الإنسان: من ولد معه - أو توأمه -

"تغـرّب لا مسـتعظماً غـير نفسـه ولا قـابلاً إلا لخالقـه حكمـا"

* * *

"أمـط عنـك تشبيهي بمـا.. وكائنـا فمـا أحـد فوقـي..، ولا أحـد مثلـي"

* * *

"وإنـي لمـن قـوم كـأن نفوسـهم بها أنفٌ[1] أن تسكن اللحم والعظمـا"

* * *

"وإذا أتتـك مذمـتي مـن نـاقص فهـي الشـهادة بـأني كـامل"

* * *

"كـأن بنيهـم عـالمون بأنّنـي جلـوبٌ إليهـم مـن معادنـه اليَتمـا"

* * *

"كـأني دحـوت الأرض مـن خَـبَرَتي كأن بنى الاسكندر السدّ من عزمي"

* * *

"يُحـاذرني حتفـي.. كـأني حتفـه وتنكرنـي الأفعى.. فيقتلهـا سُـمّي"

* * *

"ضـاق بـي ذرعـاً مـن أن أضيـق بـه زمـاني واسـتكرمتني الكـرام"

* * *

"ومـن يـكُ قلـبٌ.. كقلـبي لـه يشـقُّ إلـى العـزّ قلـب التـوى"

* * *

"وقلبـي مـن الملـوك وإن يُـرى لسـاني مـن الشـعراء"

* * *

" أعطى الزمـان فما قبلـت عطـاءه وأراد لي..، فـأردت أن أتخـيّرا "

* * * * *

---

[1] الأنفة أي: الاستكبار والاستنكاف.

"الهجاء"

– لسانك لا تذكر به عـورة امـريءٍ فكلّـك عـوراتٌ، وللنـاس أعـينُ –

لن آتي كثيراً على "الهجاء"[1]..، وليس ذلك تغافلاً بل قصداً[2].

لأنـي أحـترز مـن الهجـاء -عمومـاً- لذمّـه مـن لـدن المشـرّع سـبحانه وتعالى،.. هذا أولاً.[3]

كما قال صلى الله عليه وسلم – لمن سأله: وهل نحن مؤاخذون على مـا نقول – بـ: ثكلتك أمك، وهل يكبّ الناس على وجوههـم في النـار إلا من حصاد ألسنتهم، والحديث الآخر:

(ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء).[4]

---

[1] ..أو على حد وصف أحدهم بـ: أنه (التصوير السخري الحآد).

وهو/ التجريح الشخصي، أو: قضاء العاجز، وسلاح المُفسد – كما قيل

[2] – قال زهير بن أبي سلمى:

وكـائن تـرى مـن صـامت لـك معجـب زيادتـــه أو نقصـــه في التكلـــم

لسـان الفتـى نصـف، ونصـف فـؤاده فلـم يبـقَ إلا صـورة اللحـم والـدمِ–

[3] .. فهل يُعقل مثلاً: أن نأخذ منه – أو من تجربته – هذا المبنى.. بهذا المعنى:

ومـن عـرف الأيـام معرفـتي بهـا وبالنـاس روّى رمحـه غـير ظـالم

أو قوله:

فلـم أر وُدّهـم إلا خداعـا ولم أرَ دينهـم إلا نفاقـا

لكن الأحسن من هذا التجريح، قول المعري:

جربـت دهـري وأهليـه، فلـم تـرك لي التجـارب في ودّ امـرئ غرضـا

[4] ..قال صلى الله عليه وسلم (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)

-...

ثانياً/ لأنه يعتمد أو يُبني صيغه على التجريح الشخصي[1] الذي قد لا يكون للمرء - المذموم - حولاً ولا طولاً بوصمها.. كالعرج، أو العمش..إلخ.[2]

-...

- وقد قال يحيى بن معاذ رحمه الله:

ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال لتكون من المحسنين، إحداها: إن لم تنفعه، فلا تضره، والثانية: إن لم تسره فلا تغمه، والثالثة: إن لم تمدحه فلا تذمه.

..وكان الفضيل بن عياض، إذا اعتدى عليه شخص بالشتم والسباب رفع كفه مبتهلاً وقال: "اللهم إن كان كاذباً فيما رماني به فاغفر له، وإن كان صادقاً فاغفر لي". هذا السلوك الرائع الواجب قوله.

[1] ألا تستقبح منه ذائقة القارئ حين يقول عن كافور وحاشيته:

إنـي نزلـت بكذابـين ضيفهـم عـن القـرى وعـن الترحـال مصـدودُ

ثم يوجه - لُمضيفه - هذه النبزة.

جوعـان يـأكل مـن زادي ويمسـكني لكـي يُقـال عظيـم القـدر مقصـود

... وهذا التهكم الواضح - و.. الفاضح مقصده - :

ولا توهمـت أن النـاس قـد فُقـدوا وأنّ مثـل أبـي البيضـاء موجـود

[2] قال شاعرنا في أحدهم - وقد كانت إحدى عينيه مفقوءة -:

يـا بـن "كـروّس" يـا نصـفْ أعمـى .. وإن تفخـر فيـا نصـف بصـير!

..أما خُلق الطّباع - وهي غالباً - مُكتسبة -.. قال أحدهم مُداعباً:

و "ثقيـلٌ" مـا بَرْحنـا نتمنـى البُعـد عنـه
غـاب عنـا.. ففرحنـا جاءنـا أثقـل منـه

..وغير هذا.. الكثير!

ولا يخفى على المطّلع على ديوان شاعرنا، ما سكبه - بزعمه - على المولى الإخشيدي -...

ثالثاً: لأن مُعظمه مُبالغات وتكبير لصغير.. خفي، أو لعداوات[1].. ليس ورائها تأصيل.. يُجيز الخوض فيها.[2]

على أن لكل قاعدة استثناء، فلن أُضمر ما يودّ المداد.. من نفثٍ لجميل.. عتابه للأمّة.. - بعد.. ويلات[3] .. لقيها-

بكل أرض وطئتها أُممٌ ... تُرعى بعبد كأنها غنم[4]

..، قال - غيره[5] - بنفس النفسية التي لدى الشاعر.. أو قياساً/

"كافور"، لكن يذبّ عنه، ويجلّي عن زيفه، قول د. غازي القصيبي (ما تقدم هامش٢ ص٤١):

..لكن هو الشعر يفعل ذلك في الشاعر أو ما يستدرجه إليه هواه، وما تمليه عليه أمانيه!

[1].. وكأن المرء يحتاط.. على لسان الشاعر نفسه:

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ ... فهي الشهادة لي بأني كاملْ

[2]وكان الأديب (محمود شاكر - رحمه الله -) قد أحاز للشاعر نقد -أو هجاء- مصر ..وأهلها في عهد كافور، وأطّر لذلك "الجواز" في استرسال -انظر في/ سِفره ص٣٥٠- واستشهد بذلك في أبيات للقاضي التنوخي الكبير.. مطلعها:

تركنا بأرض مصر كل فدمٍ ... له باع يقصر عن ذراعِ

نفوس لا تليق بها المعالي ... وأخلاق تضيق عن المساعي

..إلا أني أعتبر ذلك.. مما تمليه العاطفة التي لديه للشاعر.. -وحسب هذا الاعتذار .. من حُجّة -

[3] ألم يعتب (شاعر النيل) على أُمّة - بلده - في ساعة ألم.. ونضوب الأحلام، صدّر منها..

فما أنتِ يا مصر دار الأريب ... ولا أنت بالبلد الطيب

[4] قال عمر أبو ريشة رحمه الله - موازياً (من البيت) بين تلك الحال وحال اليوم -:

أُمّتي.. كم صنمٍ مجّدته ... لم يكن يحمل طُهر الصّنم

مما يُزهدني في أرضِ "أندلس" تلقيب معتضد[1] فيها، ومعتمدِ..
.. ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسدِ[2]

❀❀❀

---

(٥) ابن رشيق القيرواني

وتعليقاً على مثل هذا - السلح -، قال ابن سعيد (ت٦٨٥هـ):

(كان ولاة بني أمية في نهاية من الانقياد للحق لهم أو عليهم، وبذلك انضبط لهم أمر الجزيرة، ولما خرقوا هذا الناموس كان أول ما تهتك أمرهم.. إلى أن وقعت الفتنة.. فظهرت ملوك الطوائف واستبدوا. حتى..أصبح توثبهم على السلطة مصدر إلهام الشعراء!!).

(١) ..أي: المعتضد/ عباد بن محمد بن عباد (٤٠٧-٤٦١هـ).

(٢) وقد ردّ ابن اللبّانة على أبيات ابن رشيق القيرواني هذه، بأنه "كلب عقور نبح" بهذا. ..مدافعاً عن آل عباد، ضمن كتاب ألّفه فيهم سماه "الاعتماد في أخبار بني عباد".

- (لافتة...):

..تُرى أكان الإسلام "غريباً" في الأندلس(*)، ولم يُمنح فيه إلا "جواز عبور مؤقت" ليرحل فيه إلى دويلات ملوك الطوائف، أو ما تسميهم المصادر الأسبانية استخفافاً بهم "مليك" (Reyezuelo) وهو مصغر تحقيري لكلمة (ملك) (Rey).

- وقد ورد في كتاب (نفح الطيب) للمقري:

لم يبقَ للجورِ في أيامهم أثر إلا الذي بعيون الغيد من حور -

(*) قال أبو البقاء صالح بن شريف الرندي - راثياً ضياعها من المسلمين .. ، في مطلع وعظيٍّ حكيم - :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يُغرّ بطيب العيش إنسان
..هي الأمور كما شاهدتها دولٌ من سرّه زمن..، ساءته أزمان

"الحُسّاد"[1]

(وعـداوة "الشـعراء" بئـس المقتنـى)[2]

.. و لم لا تكون - عداوة الشعراء - بئس المقتنى..

فـإذا مـرّ بـأذني حاسـد كـان ممـن كـان حيـاً فهلـك[3]

ولعل من أسباب قوله - في رحاب سيف الدولة -:

سـيعلم الجمـع ممـن ضـمّ مجلسـنا بـأنني خـير مـن تسـعى بـه قـدمُ

.. تكاد خلف تلك الذاتية التي تطرقنا لها، لا يكون سببها - أو باعثهـا-

---

[1] ..للإنصاف: نقول (المنافسون)!، فالحسد له داعٍ - كقول الشاعر:

حسـدوا الفتـى، إذ لم ينـالوا سـعيه فـالقوم أعـداء لـه وخصـوم -

..لكنه غير الذي نبسط عنه (هنا).

لأن الحسد - الذي قيل فيه: العجز عن المنافسة - هو: اغتمام الحاسد وقت سرور المحسود.

[2] وصدر البيت: **ومكايد السفهاء واقعة بهم.**

[3] يُذكر أن جرير حين تعرّض له الراعي النميري [*] - بالقصة المعروفة - سهر كل الليل.. في تجميع لمعنى يهجوه به..، فلما أن توصّل إلى:

فغـض الطـرف إنـك مـن نمـير فـلا كعبـاً بلغـت.. ولا كلابـا

فزّ قائلاً.. /قتلته ورب الكعبة - ومُدركٌ من المعنى المراد من وراء هذا.

وهذا ما عناه المتنبي بمقصد جرير.. حين أنشأ - البيت الشاهد -

- [*] (أبا جندل).. وذلك بقوله/ خزانة الأدب (١/٣٤):

يـا صـاحبي دنـا الأصيـل.. فسـيرا غلـب الفـرزدق في الهجـاء جريـرا -

"الغرور وحده"، بل حُسّاد هذا الشاعر[1].. فكأنه يراهم حتى وهم في مخابئهم...، حتى ليقول:

إني، وإن لمت حاسدي فما ... أُنكر أني عقوبة لهم!

و..لقد عانى المتنبي من حساده الكثير:

أرى المتشاعرين غُرّوا بذمي[2] ... ومن ذا يحمد الداء العضالا

..كما عانى من طوارق الأحداث الكثير:[3]

أظمتني الدنيا فلما جئتها ... مُستسقياً.، مطّرت عليّ مصائبا

وكما ذاق من مصائبه البلاوي:

أذاقني زمني بلوى شرقت بها ... لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا[4]

---

[1].. قال لسيف الدولة.. مُجاهراً:

أزِل حسد الحساد عنّي.. بكبتهم ... فأنت الذي صيّرتهم لي حُسّداً

[2] كـ.. "الحسين بن الحجاج البغدادي" الذي قال فيه:

يا ديمة الصفع هبّي ... على قفا المتنبي
ويا قفاه تدلّى ... واجلس قليلاً بجنبي

..إلخ هذا النظم (الوضيع)

[3] .. ولا نستغرب منه.. حين يُخاطب "الحمى" التي رابته في مصر.. بقوله:

أبنت الدّهر عندي كلّ بنتٍ ... فكيف وصلت أنتِ من الزحام

.. أي/ إن المصائب أحاطتني من كل جانب فما المنفذ الذي من خلاله.. وصلتِ!!

[4] مما جعله يبوح – تألماً – عمّا يُخالجه:

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي ... شيئاً تتيمه عينٌ ولا جيد
يا ساقيتي أخمرٌ في كؤوسكما؟ ... أم في كؤوسكما همٌ وتسهيد!

فقد ذاق من خداع ونفاق:

إذا مـا النـاس جرّبهـم لبيـب ... فـإني قـد أكلتهـم وذاقـا[1]

فلـم أر ودّهـم إلا خِـدا عـا ... ولم أرَ دينهـم إلا نفاقـا

إذاً: لنُعرّف هذا "المحسود":

"أنـا" تُـرب النـدى، ورب القـوافي ... وسِـمام العِـدى، وغيـظُ الحسـود

أنـا في أمّـة تداركهـا اللـ ... ـه ، غريـب كصـالحٍ في ثمـود

أو هكذا وُلد.. في:

(دهـرٌ).. ناسـه نـاسٌ صِغـارُ ... وإن كـانت لهـم جثـث عظـام

..مرّ بإحدى تنقلاته - الكُثر - بأرضٍ تُسمّى (قنسرين) ثم قال - حين سمع زئير أسد -:

أجارك يـا أُسـد الفراديس مُكـرم؟ ... فتسكن نفسي،..أم مهان فمُسلم؟[2]

أصخـرة أنـا[*]؟! مـالي لا تحركـني ... هـذي المـدام،ولا هـذي الأغـاريدا

.. مـاذا لقيـت مـن الدنيـا.. وأعجبـه ... أنـي بمـا أنـا شـاكٍ منـه محسـود

أمسـيت أروح مـثر خازنـاً ويـداً ... .. أنـا الغـني.. وأمـوالي "المواعيـد"

[*] من معنى طرفه أحمد شوقي بـ:

- سَلي مَن راع[**] غِيـدكِ بعدوهـن - ... أبـين فـؤاده والصخـرِ.. فـرقُ؟

[**] أي: أدخل الروع إليه.

[1] .. وهذه مبالغات مُستقبحة.. في ذائقة القارئ "المسلم".

[2] .. ولا يُشابهه إلا قول (الأحيمر السعدي) - في عهدٍ ضاعت به إنسانية الإنسان -:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى ... وصـوّت إنسـان .. فكـدت أطـير

قال عبد الله البردوني - موضّحاً:

ورائـــي وقُدّامـــي عُـــداة كثـــيرة أُحـاذر مـن لـصٍّ ومنـك.. ومنهـم

..، كما نفّس عن مكنون ما.. يتجرّعه:

والهـــمُّ يخـــترم الجســـيم نحافـــة ويـمـــسّ ناصيـــة الصبـــي فيهـــرم

لا يخـد عنّـك مـــن عـــدوٍّ دمعـــه وارحـم شـبابك مـن عـدوٍّ، تُرحـم

ثم يفيض من غيظ ما يجد:

لا يسلم الشـرف الرفيـع مـن الأذى حتى يُـراق علـى جوانبـه الـدم[1]

يـؤذي القليـل[2] مـن اللئـام، بطبعـه مـن لا يقـلّ كمـا يقـل ويلـؤم

.. ومن البليـة عـذل مـن لا يرعـوي عن جهله،[3] وخطاب من لا يفهم !

.. فلا يدع مناسبة تخمره بهمّ إلا وأجلى عن مدى صبرهِ وقوّة عزيمتـهِ[4] -كي تتولّد داخله.. فتُجاري حوادث عمـره، أو تغلبهـا -[5]، علـى أن أكثر ما يُعرّفنا بذاتيته "رثاؤه جدّته":

-...

قـالوا هـم البشـر الأرقـى ومـا أكلـوا شـيئاً كمـا أكلـوا الإنســان أو شـربوا

[1] قال أمير الشعراء - من نفس هذه الروح الجبارة -:

إن البطولـــة أن تمـــوت مـــن الظمـــأ ليـــس البطولـــة أن تغـــبَّ المـــاءَ

- وانظر لقول عنترة هامش (٢) ص٧٩ -

[2] القليل: أي الخسيس.

[3] وفي رواية / عن غيّه.

[4] ..كقوله: أطاعـن خيـلاً من فوارسهـا الدهـر

[5] .. واقرأ إن شئت قصيدة: أفاضل الناس أغراض لدى الزمن

لئن لذّ يوم الشامتين بموتها فلقد ولدت مني لأنفسهم رغما

ويختم حديثه إليهم[1]:

ألا ليست الحاجات إلا رؤوسكم وليس لنا غير السيوف وسائل

ويعود فيعرّي عن إبهام ماردّ استيفاء الحاجات - أو ردع الحساد -:

من اقتضى بسوى الهندي[2] حاجته، أجاب كل سؤال عن هل.. بلم!

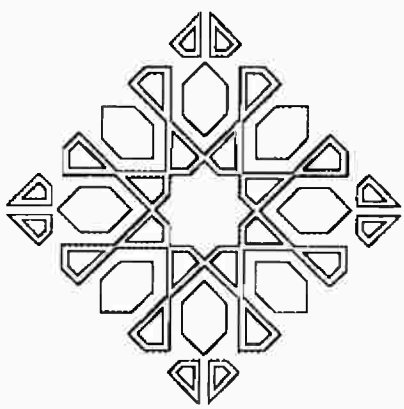

---

[1] .. أي للحساد.

[2] الهندي: السيف.

"الحكمة": [1]

...وتعني -كما شرحها محللوا الكلمة -: (المعرفة وعلم الاطلاع والإدراك)

أرى كُلّنـا يبغـي الحيـاة لنفسـه حريصاً عليها مستهاماً بها صبا[2]

فحب الجبان النفس أورثه التُّقـى وحب الشجاع النفس أورده الحربا

،.. ويعطف.. إلى هذا "التقرير" - المُدرك -:

---

[1] .. يقول الدكتور مرزوق بن تنباك (كان حظ المتنبي - الشاعر - عظيماً من هذا- أي الحكمة - .. حظاً لا يُدفع، فما ترك سلوكاً أو خَلقاً إلا قال فيه مثلاً يُذكر، كلما عنت مناسبة تستثير الإحساس بوصف أعمال الناس وأخلاقهم) ـ اليمامة. عدد: (١٢٣٨) -

[2] قال الراوية "أبو بكر الخوارزمي": أمير شعراء العصر (أبو الطيب المتنبي).. ولو لم يكن له غير هذين البيتين لكفياه، .. وقد تمنى بعض الشعراء - الأقدمين - أن يكون لهم هذان البيتان بشعرهم كله.

ولنا أن نقول بعدها: سامح الله من تتبع سقطاتك (واقعاً على الجروح)، والتي لا توازي جناح بعوضة، من إجمال ما تركت! - انظر ما تقدم ص١٧ مع الهوامش ١/٢/٥-

فما نرى في خبايا مجمل تلك المتابعة - للسقطات -: إلا غمزاً ولمزاً، أو تشفّياً..!!

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما - حين أُثني على شعر الحطيئة -:

ما تشاء أن تقول في شعر شاعر من عيب إلا وجدته، وقلما تجد ذلك في شعره، وقال عن النابغة (لكن الضراعة أفسدته، كما أفسدت حروفاً - أي، الحطيئة -)

- أما صاحب كتاب "سرقات المتنبي" فيكفي للرد عليه قول شاعرنا (خزانة الأدب (١/٣٨٣)-:

الشعر جادة، وقد يقع حافرٍ على حافر.

سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها منعنا من جيئة بها.. وذهوب
تملّكها الآتي تملّك سالبٍ وفارقها الماضي فِراق.. سليب

(أثرت حِكم المتنبي - أو لنقل شعره عموماً - المعرفة العربية والإسلامية والإنسانية إلى درجة عالية، لم يصل إليها أيُّ شاعر آخر،[1] فالخاصة والعامة يحفظون له.. ما يعينهم على مواجهة الحياة..![2] فإن رأوا مالاً آل إلى آخر بسبب مصيبة حلّت بصاحبه.. تمثّلوا بقوله: "مصائب قوم عند قوم فوائد".

وإذا عرف الإنسان قيمة الكتاب ذكر قوله: "وخير جليس في الزمان

---

[1] قال القاضي /عبد الرحمن البياني: (إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس).
- وقد قيل:
إن الكلام لفي الفؤاد، وإنما جُعِل اللسان على الفؤاد دليلا -
ثم قال الراوي - معقباً - أي والله ينطق ألم يقل:
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له.. ما من صداقته بدُّ!
.. ربما لأنها - أي حِكمهُ... كما يقول أنيس المقدسي - (دقيقة المعرفة بحوادث الزمان صائبة النظر في عواطف الإنسان..).

[2] ..كتب الأديب بدر المطيري: (حِكم المتنبي/ حقائق لا شك.. وقد تكون في جانب كثير منها بسيطة.. ومعروفة، لكن "الشاعر الكبير" نفث فيها من روحه وموهبته الخلاّقة..، فكانت كالسحر الذي يقلب حياتنا رأساً على عقب، كمثل فلسفته لحقيقة "الموت":
وما الموت إلا سارق دق شخصه يصول بلا كفٍّ ويسعى بلا رجل
فـ "الموت" كالسارق: يأخذنا على حين غفلة -أو غرّة ولا نراه)- الجزيرة عدد ٩٣١٤-

كتاب" وإذا حز بالإنسان أمر و لم يجد المساعد ذكر قوله: "إذا عظم المطلوب قلّ المُساعد" ..إلخ..[1])

..كان لرصيد المتنبي[2] من اللغة والثقافة[3] والتجربة[4].. والترحال؛ ما جعله يمازج ويزاوج بين بعضها بعضاً، ليخرج لنا بهذا التزاوج - والامتزاج - الأبيات النادرة[5] كدرر من جوف صدف في بحر عميق.[6] وهذا ما جعله "ينبؤ" باللغة، ويعلو بالشعر..، ويسمو بالحكمة:[7]

---

[1] بتصرف.. د. عبد العزيز الفيصل – الجزيرة عدد ٩٣٣٧.

[2] وأكد تقرير (سهيل عثمان ومنير كنعان) - المحصول الفكري للمتنبي/ص٣٢٥ - بـ:

(و..ليست العبرة هنا بكثرة الاطلاع والحفظ، بل بالقدرة على الاستعادة الملائمة للمناسبة، فكم من الناس قرأوا وحفظوا أكثر من شاعرنا، ولكن ذاكرتهم ظلت ضنينة عليهم برصيدها..إلخ).

[3] ..انظر للمزيد عن مدى ثقافته كتاب الفن ومذاهبه ص٣٠٩ وص٣١١ -

إيضاح/ ورد في القاموس - تحت مادة (ث ق ف) في أحد معانيها أنه ليس مجرد اكتساب المهارات اللازمة في الحياة البشرية وحسب!، ولكن الحذق فيها أيضاً.

أي..بمعنى: الأخذ من كل فن بنصيب.

[4] قال "برناردشو":

يكتسب الرجال الحكمة لا بنسبة تجاربهم..، بل بقدرتهم على التجربة.

[5] .. قال د. محمود الربداوي: "المعروف أن خير شاعر نطق بالحكمة هو المتنبي.. - مجلة الفيصل عدد (٢٩٩) -

[6] إذ كان يأتي بالحكمة بالبيت وحده، أو الصدر، أو نصفه أو..

[7] مما.. جعل الصاحب بن عباد يؤلف رسالة لفخر الدولة بن بويه، جمع فيها من شعر أبي -...

لم يُبقِ الدهر من قلبي ولا كبدي شيئاً تتيمه عين.. ولا جيد[1]

.. ولكنها - أي حكمه - .. "تكاد تكون حمراء تقطر دماً".[2]

على أن الذائقة - العفيفة - لا تُجيز له.. هذا الحُكم - ..عفواً أقصد النظم-:

والظلم من شيم النفوس[3] فإن تجد ذا عفّة.. فلعلّة[4] لا يظلم[5]

-...

الطيب زهاء ثلاثمائة وسبعين بيتاً تجري مجرى الأمثال قال في مقدمتها: (وهذا الشاعر مع تميزه وبراعته وتبريزه في صناعته، له في الأمثال خصوصاً مذهب يسبق به أمثاله).

ويضيف د. شوقي ضيف قائلاً: لعلنا لا نغلو إذا قلنا إن المتنبي استطاع مع كل ما رأيناه عنده من ضروب تصنع مختلفة أن يحلق في أسمى أفق الشعر العربي -الفن ومذاهبه ص٣٢٦.

(١) -.. انظر تمام الأبيات، فيما تقدم ص٩٣-٩٤ هامش (٤) -

(٢) على وصف الأديب "أنيس المقدسي".. - أُمراء الشعر العباسي ص ٣٥٤-.

.. ولا نعجب أن يجعل "ابن رشيق" من أهم مزاياه (الأمثال.. وذمّ الزمان) - العمدة/ ص١٩٤-، ثم يضيف مكرراً: ومن أكثر من شيء عُرف به.

(٣) ..لا ليس من شيم النفوس - أو طبائعها - بل مساوئها.. قال تعالى في الحديث القدسي: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي.. وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا" - الحديث..

وقد حذّر المصطفى صلى الله عليه وسلم من الظلم بقوله: "اتقوا دعوة المظلوم.. فإنه ليس بينها وبين الله حجاب" ..أو كما ورد.

(٤) والعلة قصد بها "الرادع" كالدين .. الذي حرّم الظلم، أو الغنى أو الخوف من السلطان، أو حتى الزهد بما لدى الآخرين..إلخ.

وربما الأحسن للفطرة من تعليله، قول الفلاسفة/ إن النفوس تركت الشهوات البهيمية طبعاً.. لا خوفاً.

(٥) .. وقد يكون أخذ "البيت" من حكم زهير بن أبي سلمى:

ومن لم يذد عن حياضه بسلاحه يُهَدّم، ومن لا يظلم الناس يُظلمِ

و.. قال - غيره -

وأحيانا على بكرْ أخينا ... إذا لم نجد إلا أخانا

-...

قال تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾[1] إنما يجب أن لا يوافى ذا "الحلم" لغير من يقيّم..، - حتى لا يظن ذلك ضعفاً[2]:

ولا خير في حلم.. إذا لم تكن له بوادرُ تحمى صفوه أن يكدرا[3] -

ثم هذا التنظير:

ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام[4]

وسوى هذا العيب دونه أو أدنى..،

وكيف ينتفع بنظره من استوى عنده الليل والنهار:[5]

-...

إذ.. هذه حالهم، وما انتهى إليه تدبير عقولهم.

فلأن عُذر "زهير" -وغيره - لأنه جاهلي، وهذه مقومات الحياة لديهم، .. فما هو عذر شاعرنا - ربما الحالة السياسية.. في عهده!! كما تقدم عنها ص٢١-

[1] سورة آل عمران، آية ١٣٤.

[2] فـ.. في المثل: (قد يُدفع الشر بمثله، إذا أعياك غيره)

كما قال الشاعر:

وبعض الحلم عند الجهل للذلة إذعان وفي (الشر) نجاة.. حين لا ينجيك إحسانُ

- قال أحمد شوقي (في/ نهج البردة):

والشرُّ إن تلقه بالخير.. ضقت به ذرعاً، وإن تلقاه بالشر ينحسمِ

[3] النابغة الجعدي - رحمه الله -

[4] قيل إن "شارل ديغول" - الزعيم الفرنسي - أمر بكتابة هذا "البيت" على البارجة التي تتقدم الجيش.

[5] ..يضرب المولى جل جلاله.. مثلاً فيمن ضلّ بعد هُدىً أتاه: ﴿ذهب الله بنورهم -...

ومـا انتفـاع أخـي الدنيـا بنـاظره إذا استوت عنـده الأنـوار والظلـم

بالطبع لا ينتفع بنظره عند هذه الحالة!،

بل لديه من الحكم الدُّر، نَعْرض بعضها.. ونُعرّض لبعضٍ منها:

- هذه الحكمة البالغة -

وليـس يصـح في الأفهـام شـيء[1] إذا احتـاج النهـار إلى دليـل

وقوله لسيف الدولة الحمداني:

لعـل عتبـك محمـود عواقبـه

لما..؟!

فربمـا صحّـت الأجسـام بـالعلل

- وهذه الحكمة شطر "بيت"..، -

بل قالها بنصف الشطر:

فالموت أعـذر لي والصبر أجمـل بـي والبر أوسع.. "والدنيا لمن غلبا"[2]

وتعبيره.. هذا:

إذا أتتـك مذمـتي مـن نـاقص[3] فهـي الشـهادة بـأني كـامل

وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ - سورة البقرة، آية ١٧ -

[1] قال الإمام علي بن حزم الظاهري رحمه الله - ت٤٥٦- بعده:

وأثبـتُ مـا يكـون الأمـر يومـاً بـلا شـكٍّ.. إذا صـح الدليـل

[2] استفاد أحمد شوقي.. من (المعنى.. والمبنى) لـ ينظم - حكمته -:

ومـا نيـل المطـالب بـالتمني ولكـن تُؤخـذ الدنيـا غِلابـا

[3] ..وأثرى هذا المراد "أزاك" بقوله: (إن نقائص العلماء.. هي عزاء الناقهين!)

و.. قوله يصف أُمّ سيف الدولة - وهو يرثيها -:

ولـو كـان النسـاء كمـن فقدنـا ... لفضّلـتُ النسـاء علـى الرجـال

.. وما التأنيث لإسم الشـمس عيبٌ ... ولا التذكـير فخـرٌ للهـلالِ

ونشره من سناء الحياة.. لمن:

تصفـو الحيـاة لغـافل أو جـاهل[1] ... عمـا مضـى منهـا.. ومـا يتوقّـعُ

ولمـن يخـالط الحقـائق نفسـه ... ويسـوّمها طلـب المحـال.. فتطمـعُ

أو كجميل تبدّعه.. هذا:

ومن نكد[2] الدنيا على الحُرّ أن يرى ... عـدوّاً لـه مـا مـن صداقتـه[3] بـدُّ[4]

---

[1] قال تشيكوف: "كلما ازدادت ثقافة المرء.. ازداد بؤساً".

و..قال "مشل": (إن الإنسان الذكي أتعسُ حالاً من الذين أقل ذكاء..!).

كما قال شاعرنا:

ذو العقـل يشـقى في النعيـم بعقلـه ... وأخـو الجهالـة بالشـقاوة ينعـمُ[*]

وقد قال أيضاً:

ومـن تفكـر في الدنيـا ومهجتـه ... أقامـه الفكـر بـين العجـز والتعـبِ

- [*] كان النجفي يقول:

ويـا ليـت للجهـل (العميـم) مُدرِّسـاً ... لـيُرجع لي جهلـي، فـأصبح كـالطفلِ

بليـتُ بعقـلٍ جـامح، لِيَ متعـبٍ ... يفتّش عن وعر، وينـأى عـن السـهل!!

تمنيـتُ، مـسجناً للعقـول لألتجـي ... لـه.. فبسـجن العقـل حريـة الطفـلِ-

[2] النكد: قلة الخير.

[3] ..لكن تصحيحاً الواجب أن يقول: مـا مـن مداراتـه، إذ الصداقـة تنشـأ عـن تبصّر بالخليل، أما المداراة فهي دافع - أو غطاء - لحاجة تقضي بانقضائها، ويسند ذلك مـا -...

ونستطيع أن نقول - إذا رغبنا التصنيف - أن هـذا البيـت.. مـن حِكمـه الخاصه.[1] ..، كـ:

-...

ورد في الأثر (إنّا لنبشّ في وجوه أقوامٍ، ونلعنهم في قلوبنا).

[4] - من قصيدة في مدح (محمد بن سيار التميمي) - وكأنه ألهم القائل..:

ومـن نكـد الأيـام أن يبلـغ المنـى أخـو اللـؤم فيهـا، والكريـم يخيـبُ

[1] لأبي الطيب حكم "خاصة" تحدّرت من نفسيته، ومـن تعمّقـه بـالذات، ومـن تجـاربٍ ومُحاكاة لمسها فسلسل برويها بديع سبكه، مثلاً - وقد أسلفناها -:

ومـن نكـد الدنيـا علـى الحـر أن يـرى عـدواً ليـس لـه مـن صداقتـه[*] بـد

فهي - هذه الحكمة - تلمس جزء من ذاتيته الشامخة، وما أحاجته لهذا النظم.

أيضاً../

ومـن البليـة عـذل مـن لا يرعـوي عـن غيّـه ، وخطـاب مـن لا يفهـم

أو - وهذه أنكاء للمرارة -

ولا تـزال قلـة الإنصـاف قاطعـة بـين الرجـال، ولـو كـانوا ذوي رحـم

وهذا "التحذير":

لا يغـرّك مـن عـدوّك دمعـهُ وارحـم شـبابك مـن عـدوٍّ ترحـم

وهذا "التنبيه":

إذا رأيـت نيـوب الليـث بـارزة فـلا تظـن أن الليـث يبتسـم

- والأجمل.. سابقه:

ذو العقـل يشـقى بـالنعيم بعقلـه وأخـو الجهالـة بالشـقاوة ينعـمُ

... ومثله

لـولا العقـول.. لكـان أدنـى ضيغـم أقـرب إلى شـرفٍ مـن الإنسـانِ

- الضيغم/ الأسد -

-...

ومـن العـداوة مـا ينـالك نفعـه ومـن الصداقـة مـا يضـر ويـؤلم[1]

.. وهذا "التذكير":

ومـا مـاضي الشـباب بمُسـتردٍّ ولا يـوم يمـرّ.. بمُسـتعادِ

بل.. هل هناك أجملُ إجمال.. من هذه:

ذكـر الفتـى عمـره الثـاني، وحاجتـه مـا فاتـه..، وفضـول العيـش اشـغال

..أو هذا المنتهى الذي صدّره.. من ذآق الأمرين:

أعزُّ مكـان في الدّنـا سـرج سـابح[2] وخـير جليـس في الزمـان كتـابُ[3]

-...

.. وهناك أمثلة يصعب الإتيان على جلّها، لكنها – وهذا القصد – علّمت في شعره (الحكيم بالذات) كما علّم بها عطاء ذا المُتفنّن في أسلوبه، ونتاج قريحته، وسجية ملكته.. إغناءً لـ .. "ديوان العرب".

[1] قال (وليم بلايك): غالباً ما آلمتني صداقتك..، فكن عدوّي باسم الصداقة –

[2] سرج سابح/ يقصد ظهر الجواد. (كناية: عن خوض الحرب)

[3] .. وقد سبقه أبو عمرو "الجاحظ" – في كتابه/ الحيوان- ت٢٥٥هـ – في نثر حكيم عن هذا.. الـ"خير جليس":

(..والكتاب وعاء مليء علماً، وظرف حشيّ ظرفاً، وبستان يحمل في ردن، وروضة تقلب في الزهر، ينطق عن المولى، ويترجم كلام الأحياء، ولا أعلم حاراً أبرّ، ولا خليطاً أنظف، ولا رفيقاً أطوع ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية، وأمل حناية، ولا أمل إملالاً وإبراماً، ولا أقل خلافاً وإجراماً، ولا أزهر في جدال، ولا أكف عن قتال "من كتاب"...).

وقال (د. علي الطاهر): (الكتاب متعة،.. والحديث عن الكتاب متعتان!)

..قال الشاعر:

-...

..حتى ليخلص إلى:

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي: المجد للسيف ليس المجدُ للقلمِ

ولعل القارئ يستزيد في الرجوع لديوان الشاعر المليء بين دفّتيه (حِكَمٌ).. لا ينتهي مشربها.

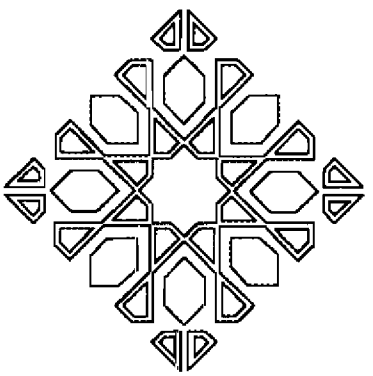

-...

ولي جلساءُ ما أمَلُّ حضورهم ألبّاءُ مأمونون غيباً ومشهدا

يفيدونني من علمهم علم ما مضى وعقلاً وتسديداً ورأياً مؤيّدا

فلا رِقيةَ أخشى ولا سوء عشرة ولا أتّقي منهم لساناً ولا يدا

فإن قلتُ: أحياء فلستُ بكاذب وإنْ قلتُ: أموات فلستُ مفنّدا

- متراجعاً -: واختصاراً نروي اعتراف شوقي.. حين قال:

أنا من بدّل بالكتب الصحابا فلم أجد صاحباً مثل الكتاب